

العُزْبَةُ الزَّرْقَاءُ

للمصنف الفرنسي بروديرير

بقلم الأستاذ محمد عبد الفتاح محمد

التجار .. وكان الشاب ذو النظارة الزرقاء يحس بقلبه يضطرب بين جنبيه حين يرى مخلوها يدخل أو عربة تقف بالباب . بل إن ركبته كانتا ترتعدان . وقد لا يكون من الغلاة إذا قلت إن الحتمية كانت للمهفة تسقط من يده وتنحدر النظارة على طول أنفه ، فتبدو للعاين أو رآها هكذا أنها في وضع مهمل لا أقل ولا أكثر

وأخيرا دخلت امرأة مجللة بالسواد من باب جاسي لا يفري عرافته ، وعلى وجهها نقاب صفيق ، وتحمل في يدها حتمية بنية اللون تحتسوي — كما عرفت بعد — على روبري راي رافع وخفين من حرير الساتان الأزرق

دنت المرأة من الشاب ودنا منها . وتناقتا ذات الدين وذات الشمال ؛ ونظرا ماشاءا أن ينظرا أمامهما إلى أن التقيا فصالحا . غير أنهما نلبشا بصع دقائق دون أن ينطقا بحرف ، وكان حسداهما يختلجان لما يستطحن في صدريهما من افعال .. افعال أحتاج لكي أصفه إلى دراسة علم النفس مائة عام سويا

انطلق الشاب يذرع رصيف المحطة في قلق واضطراب . كان يضع على عينيه نظارة زرقاء . وكان يخفي أنفه بمتدبل برغم أنه لم يكن يشكو الزكام . وكان يحمل بيده اليسرى حتمية سوداء صغيرة ، تحتوى — كما علمت بعد — على « روب دي شامبر » من الحرير الأزرق وبعض السراويل التركية .. وكان بين الحين والحين يذهب إلى مدخل المحطة فيلقي على الشارع نظرة يقي بعدها إلى مكانه . وأخيرا نظر في ساعته فوجد أن أمامه ساعة كاملة على بدء تحرك القطار . وهكذا نرى بعض الناس ، حرصا على اللحاق بالقطار يذهبون إلى المحطة قبل الموعد بساعة أو يزيد ، على حين تراهم في بيوتهم يحترمون مواعيد طعام الغدا . احتراما شديدا ! وكانت مركبات الدرجة الأولى شبه خالية . فقلما وجد الإقبال على ركوب الدرجة الأولى

وحين أخذ الركاب يتقاطرون على المحطة ، أدرك اليا ريسي الأبيض ، من مجرد استعراض وجوههم ، أنهم من الفلاحين وصغار

وهتفت الشابة قائلة : ليون !

.. آه .. نسيت أن أذكر أنها كانت

فيانة الشباب، رائعة الحسن

— ليون ! ما أشد سعادتي باليون ! آه !

هذه النظارة الزرقاء ! لم أكأ أعرفك بها

فقال : وأنا يا حيأتي كدت لأعرفك بهذا

القميص الصغير

فقلت : إنني نشوي من الفرح .. هلم إلى مكاننا

في القطار .. ماذا لو برح القطار من دوننا ؟

ثم ضغطت على ذراعها قائلة : لن ندبر كل شيء

تدبيراً حسناً .. إنني الآن مع كلارا وزوجها

في سبيلنا إلى عزبتهما حيث أقضى معهما

ليلة أبرح في صباحها .. و ...

وضحكت ثم قنعت رأسها وقالت :

ولقد خرجت مع كلارا منذ ساعة .

وفي الغد بعد أن أبيت معها الليلة الأخيرة ،

وضغطت على ذراعها مرة أخرى ،

ستسحبني كلارا إلى المحطة حيث أجد

« أرسول » الذي أرسله إلى عمتي .. أرايت

كيف دبرت الأمر فأحكمت تدبيره ؟ هلم إلى

شراء التذاكر .. محال أن يكتشفوا أمرنا .

ولكن يا لله ! .. بماذا يجيب لو سئلنا عن

اسمينا . لقد قاتني هذا

فقال : ليكن اسمانا « مسيو ومدام دورو »

فقلت : لا ... غير هذا الاسم ، ففي حيننا

بائع أحذية بهذا الاسم

قال : إذن « دومون » أيعجبك ؟

فغممت : دومون !

فقال : على حال كل ، لا تراعى ، فلن

يسألونا عن شيء

ودق الجرس ، فاندفعت المرأة بقناعها

المسدل على وجهها إلى إحدى العربات ومعها

صاحبها . وعندما دق الجرس دقته الثانية ،

أغلق عليهما جمال باب الدبوان فتهافتا جذا

— وحدنا أخيراً !

ولكن بعد لحظة ، اقتحم عليهما الدبوان

رجل في الخمسين من العمر في رداء أسود ،

عابس الوجه ، مقطب الجبين ، وانزوى

جالساً في الركن القصي ... ودوى صفير

القطار ، وبدأ يتحرك . وكأنا ضاقت بهما هذا

المقتحم الثقيل ، إذ ابتعدا عنه ما وسعهما ،

وأخذا يتهاوسان بالإنجليزية درءاً للشبهات

— سيدى !

انطلقت هذه اللفظة من الركب الثالث

بالإنجليزية أيضاً ، ولكن في لهجة أسلم من

لهجتهم :

ثم قال : إذا كان حديثكما مما تحرصان على

كتمانها فاستعملا لغة غير الإنجليزية فأنا

إنجليزى الجنس . وبمسد فمذرة لاقتحامي

الدبوان عليكما . إذ كنت في العربة الأخرى .

وكان بها رجل واحد ، ولا أحشى أكثر

من السفر في عربة مع رجل واحد . لقد

حالة من السعادة والابتهاج حتى لترى أن
السجن مع ليون هو جنات المعيم
وأخذ النظار سبيله لا يابى على شئ .
واستغرق الإنجليزي في قراءة كتابه دون
أن يحفل بالنظر إلى رفيقيه في السفر اللذين
انطلقا يتساجيان في همس هو أسلوب العاشقين
منذ القدم . وقد لا أثير دهشة في نفس
القارى إذا قلت إنهما كانا عاشقين هارين .
أما ما بيعت على الدهشة حقاً والاستكار ،
فهو أنهما لم يتزوجا ولا حتى أزمعا الزواج
استسلاماً منهما للعقبات التي تترص ذواحمها
وبلغوا طيئهم . وكان الإنجليزي هو أول
من غادر المنار ، وبينما كان ليون يساعد
حبيبته على النزول الدفيع من عربة مجاورة
رجل هبط إلى الرصيف . كان صاحب الوجه
ذا عيني غائرتين ينبعث منهما الشر ، وذقن
مدببة . كان مظهره مظهر رجل مجرم بفطرته ،
وكانت ثيابه نظيفة تماشاها البلى . وكان معطفه
أسود اللون برما ما ؛ أما الآن فقد أصبح
أخضر داكناً على الكتفين والظهر . وقد
ضمه إلى عنقه وربما كان ذلك ليحفي سترته
المعتيقة البالية . وقد تقدم إلى الرجل الإنجليزي
وهتف في لوعة : عماء !

— فراح به الكهل الإنجليزي وعينه

تتقدأ غيباً

— اغرب عن وجهي أيها الشقي

كان الغدر والشر تلمع بهما عيناه . ولعله قد
سال لعابه حيناً رأى هذه

ثم أشار إلى حقيبتته التي كان قد ألقى بها
على المقعد أمامه . وأردف الرجل :

— أما إذا لم أستطع النوم ، فلسوف أقرأ
وأخرج من الحقيبة غطاء لرأسه ثم أغلق
عينيه لبضع دقائق ، بيد أنه فتحهما في تهرم
وأخرج من الحقيبة نظارة وكتاباً لاتينياً ،
ثم استغرق في قراءته . وقد حدث بينا كان
يبحث عن الكتاب أن قلب محتويات
الحقيبة ، وأخرج بعضها إلى المقعد ، وكان من
بينها حزمة من أوراق النقد الإنجليزي . وقبل
أن يعيدها إلى الحقيبة ، أرى الشاب إياها
وسأله عما إذا كان يستطيع تحويل هذه الأوراق
إلى عملة فرنسية

فأجاب : أظنك تستطيع ذلك في مدينة
(إنجلند) وكانت إنجلند هي المدينة التي يقصدها
الشابان . وكان بها فندق صغير ، ولكنه
نظيف أنيق . وكان غالباً ما يكدظ بالزلاء
وبخاصة في عطلة الأسبوع . وكانت غرفه
نظيفة نسبياً . فلا يكن أن تقارن طبعاً
بين فندق إنجلند وأحد فنادق باريس . وكان
ليون قد زار الفندق قبل هذا ولكن بدون
نظارة زرقاء . وبعد أن أشاد بالفندق من
حيث الموقع والنظافة والخدمة ، تلمهت
حبيبته إلى زيارته . هذا إلى أنها كانت في

ثم هرول يبنى الخروج . فقال الشاب
في لحظة تجمع بين اليأس والتهديد
— لا تدفعني إلى هاوية اليأس

فقال الإنجليزي لليون : ارفع بنظرك هذه
الحقيقية ثم ألق بالحقيقية عند قدميه ، وقبض
على ذراع الشاب الذي اعترضه واتحى به
ركبنا مهملًا ونهره في خشونة ثم أخرج
من جيبه بعض الأوراق المالية ودسها في يده
فأخذها دون أن يعنى بشكره وفارقه
ثم اختفى

وكان بالمدينة فندق واحد . إذن فلا عجب
أن اجتمع أشخاص هذه القصة مرة
أخرى بعد بضع دقائق . وفي فرنسا
تكون أجمل غرفة في الفندق عادة من
نصيب الرجل الذي يتأبط ذراع امرأة أنيقة .
مما يدل على أننا أرق شعوب أوروبا جمعاء

وإذا كانت الغرفة التي أعدت لليون
وصاحبته هي أحسن غرفة في الفندق ، فعلينا
إذن أن نصدق أنها كانت حقا غرفة فاخرة .
كان بها سرير خشبي كبير ، وعلى نوافذها
استار من الخمél نقش عليها بلون بنفسجي
أسطورية « بيراموس وتيس » أما الجدران
فكانت مكسوة بورق بلون رسم عليه
أحد مناظر مدينة نابولي ، وتناثرت عليها
رسوم ووجوه مختلفة ، عمد بعض النزلاء
اللاجئين إلى تشويحها بإضاعة رسم الشوارب

والعلايين إليها ، سواء في ذلك وجوه الرجال
أو النساء . هذا إلى جمل حتماء كتبت بالقلم
الرصاص على موضع السماء والماء في
الرسم . وعلى أحد الجدران كان ثمة نقوش
أخرى تمثل بعض الأحداث التاريخية مثل
لويس فيليب وهو يحلف اليمين في ٢٦
أغسطس سنة ١٨٣٠ ، وبمثل اللقاء الأول
بين جوليا وبين القديس بربيه ... إلى غير
ذلك ... وكانت الغرفة مشهورة باسم الغرفة
الزرقاء ، ذلك لأن المغمدين الكثيرين بها
الذين يحفان بالوقد ، كانوا مكسوين بقطيفة
هولندية من ذلك اللون ، بيد أن اللون اختفى
منذ بعيد تحت كسوة جديدة رمادية اللون
لامعة يتناثر عليها تطريز على هيئة ورود
ملونة صنوفها مختلفة الأصناف

وترك ليون حبيبته تعنى خادمة الغرفة
بشؤونها ، وذهب إلى المتصف ليوصي بإعداد
طعام المشاء ، وكان يحس ضيقا رغم وجوده
في جو مشبع بروح الحب الندي وأنسام الهوى
الماطرة . وكان عليه أن يبذل جهدا في إقناع
أولى الشأن في الفندق كيما يمدوا له عشاء
خاصا . بل كان عليه أن يلجأ إلى الرشوة
لبلوغ قصده ولكنه دهش حين وجد أن
ذلك سهل ميسور دون حاجة إلى قوة
إقناع ، أو مال . فقد قيل له إن مائدة
الفندق العامة الملائمة للغرفة الزرقاء مشغولة

الليلة بفرقة ضباط الفرسان الثالثة التي كانت ماضية لتحل محل فرقة الضباط المشاة ومعنى هذا أن الطعام الجيد سيتوفر الليلة في الفندق لهذه المناسبة

وقد أقسم صاحب الفندق بأغلاظ الأيمان أن هؤلاء الضباط من بين جنود فرنسا أجمعين، يتمازون بأخلاق كريمة، وأن تصرفاتهم لا تدفع إلى الشكوى ولا الامتعاض. وأكدهم له أنهم لن يزجوا السيدة وصاحبها بوجودهم على مقربة من غرفتهما، هذا ولو أنهم لا ينتهون من العشاء إلا قبيل منتصف الليل

واهتم ليون لهذا الأمر وحسب حسابه. ورأى من الأحداث كذلك، أن الرجل الإنجليزي نزل بالفرقة الملاصقة لغرفته. وكانت الغرفة مفتوحة في أثناء مروره بها، فرأى خلال بابها السكهل الإنجليزي جالسا إلى مائدة صغيرة عليها زجاجة من خمر وكأس مترعة، وقد علق بصره في ستمف الحجره في استغراق واهتمام كأنما كان يحصى عدد الذباب الذي كان يتوالب عليه ويحوم حوله. وقال ليون يحدث نفسه :

وماذا يهمنا أن يكون أى صنف من الناس جارا لنا ؟ سيستغرق الإنجليزي في سكره بعد قليل، أما عن الضباط فليسوف يرحلون قبل منتصف الليل وكان أول شئ فعله ليون حين عاد إلى

الغرفة الزرقاء، أن اختبر الأبواب. كان الباب الذي يفصل بينه وبين الإنجليزي من خشب سميك كما كان الجدار سميكاً أيضاً. أما الباب الموصل إلى مائدة الضباط فقد كان من خشب دقيق ولكنه كان على أية حال ذار تاج ومفتاح. على كل حال كانت خلوتهما أمنع للفضول والتطفل من خلوة في غرفة كل ما فيها من حواجز ستائر مسدلة. وبعد فكم من المشاق من يزعم حين يختل في غرفة أنه ابتعد عن أعين الدنيا بأسرها !

وأى خيال شاعر مهما أوتى من قوة التعبير، يستطيع أن يصور تلك السعادة التي يختلج بها قلبا عاشقين صغيرين التقيا بعد طول بقاء. وأى لقاء ! لقاء في خلوة آمنة بعيدين عن أعين العواذل والرقباء والفضوليين يطرحان متاعبهما ويتفشان عن أشواقهما وينعمان بهوى ضارم مشبوب. ولكن كثيرا ما ينهس الشيطان بعض الأحاليب ليصب بضغ قطرات من العلقم في كأس السعادة ذات الخدر الحالم اللذيذ ... إذ حدث أنه بينما كان ليون ومالكه قنينة يتناولان عشاء متواضعا لذيذا توفرهما أعد للضباط، إذ امتعضا وتقرزا مما اشتمل عليه حديث السادة في غرفة المائدة المجاورة من كلمات مكشوفة وألفاظ نابية. كانت أحاديثهم بعيدة كل البعد عن الممارك الحربية

والخطط الاستراتيجية .. ولعل لا أستطيع أن أزجي للقارىء الفاضل مثلاً من هذه الألفاظ . وكانت الضحكات الصاخبة تنفجر من حناجرهم بين الحين والحين . وكم أزعجتهم هذه الضحكات .. ولم تكن صاحبتها من ذوات المزاج الحاد ، وإنما هناك أشياء تزعج المرأة سماعها وبخاصة إذا كانت مع الرجل الذى تهواه . وصارت الحال لا تطاق . وحين بدأ الضباط يتناولون الحلى ، كان ليون فى سبيله إلى صاحب الفندق يرجو منه أن يطلب إلى هؤلاء السادة أن يكفوا عن إحداث كل هذه الجلبة وأن لا يسرفوا فى مجونهم الفاضح تالطفاً منهم لوجود سيدة مريضة فى الغرفة المجاورة

وحار صاحب الفندق — كما هى عادة أمثاله إزاء ضباط الجيش — كيف ينقل إليهم هذه الرسالة . وما كاد ليون ينتهى من زجائه ، حتى أقبل نادل يطلب زجاجة شيمانيا للضباط ، وخادمة أخرى تطلب زجاجة من النبيذ البرتغالى للسكريل الإنجليزى ثم أضافت الخادمة :

علما بأنى قلت له إنه ليس لدينا خمر برتغالية . فقال صاحب الفندق معنفاً إياها : — يالك من حمقاء ! مالك ولهذا . أهى معضلة أن نصنع خمرًا برتغالية فى فرنسا .. سأمزج له سريعاً زجاجة كأنها آنية لفورها

من البرتغال

وبعد أن مزج الرجل الخمر المطلوبة ؛ ذهب إلى الضباط يبلغهم رسالة ليون وهبت بين الضباط عاصفة حين سمعوا مقالة الرجل ، وانشق من بينهم صوت آمر ساد الصمت على أثره ونساءل هذا الصوت أى صنف من السيدات هذه الجارة المريضة . فقال صاحب الفندق :

— تموا يا سادة أنها جدة فانتة ، كما أنها خيجولة كزنبقة طاهرة ، ولقد أنبأنى مارى جان أنها تضع فى بنصرها خاتم زواج ، لذا أعتقد أنها عروس جاءت مع عريسها لقضاء شهر العسل هنا كدأبهن دائماً فانفجر أربعمون صوتاً تهنئ :

— عروس ! لا بد أن تنضم إلينا وتشرب معنا . سنشرب جميعاً بنخب العروس الحسنة . ولسوف نعلم زوجها كيف يتصرف معها وارتفعت أصوات الضباط تحمداً للرأى المقترح . فارتعد العاشقان حسبانا منهما أن الضباط سيقترحون عليهما الغرفة . ولكن عاد الصوت الأمر يزجرهم . أمرهم بالصمت ثم حادهم فى همس لم يصل إلى آذان من فى الغرفة الزرقاء . لقد اقترح عليهم وسيلة أخرى للتسلية ، لم يثوروا لها فرحاً ، وإنما تقبلوها فى تقدير وإعجاب على أثر ذلك ساد صمت شامل ، وحده

صاحبا العاشقان للصوت الأمر صليعه .
ويدها يدهما من بهمسات العشق ونجوى الغرام .
يبد أن نصب السفر وذلك الأثر الذي تركه
عبث الضباط في نفسيهما ، لم ينجبا عنهما
إلا بعد فترة طالت على عاشقين . وإن اثنين
في مثل سنهما الشابة الزاخرة ، لا يجدان
كثير مشقة في التخلص من متاعب تتحالف
على هارين في الهوى ، وسرعان ما أوغل
كل منهما في الاستمتاع بوقته واغتنام
لذة ساعته

وحيل إليهما أن ما يخشيانه من الضباط
قد انجبا وانجلى . ولكن ما كان هذا
مع الأسف إلا هدية قصيرة إذ حدث في تلك
اللاحظة المرموقة ، تلك اللحظة التي كانا
يخلقان فيها في آفاق من السعادة المطلقة
أن تفجر صوت أربعة وعشرين بوقا
مصحوبة بأصوات أخرى من آلات
نحاسية في شيد مشهور بين الفرنسيين
هو «النصر لنا» وكيف يطبق أى مخلوق
مهما أولى من قوة الاحتمال ، مثل هذه
الحملة الهادرة

وانقلب العاشقان المسكينان إلى حالة
دعو إلى الرثاء ،
ولكن . . كان ما أعقب ذلك أدهى
وأمر . . إذ خرج الضباط في النهاية من
عربة المائدة وتماطروا مرورهم بخطواتهم

المنظمة والمريحة أيضا ، حتى إذا وصل كل
منهم إلى باب الغرفة الزرقاء صاح بأعلى
صوته : « طابت ليلتك أيتها العروس »
والآن . . . اختفت الجلبة وعم الصمت . .
لا . عفوا فقد أخطأت . . إذ خرج الإنجليزي
إلى الردهة وصرخ قائلا : « يا ساقى ! إلى
تحتاجه من هذا الشراب البرتغالى المدهش ! »
وأخيرا ، ساد الهدوء في الردهة الصغيرة .
وكان الليل في روعة وسحر وجلال ، وكانت
الأنسام تهب طربة ندية فنشير كوامن الشوق
والحنين ، وكان القمر الزاهر يضيئ
على السكون تورا فضيا ساجيا يوحى بالشعر
ويبعث الأحلام . . آه ! وعلى ذكر القمر ،
لا يذكر التاريخ متى بدأ هيام العشاق
بالتطلع إلى القمر وبالتغنى بقصود القمر . .
فتح ليون وصاحبه الفافذة وكانت
تطل على حديقة صغيرة واستقبلا نساءهم
الليل الفواحة بعطر الأزهار المحملة بترانيم
الطيّار . ولم يطل بهما الوقوف في الفافذة .
كان في الحديقة رجل مقنع الرأس بمقعد
ذواعبه على صدره ، وبين شففيه سيجار
مشتعل . وقد عرف فيه ليون ابن أخى
الإنجليزي أولوع بالخمر البرتغالية الجيدة
إننى أكره ذكر التفاصيل كلها ؛ كما أنه
ليس مفروضا على أن أذكر للتقارى كل
صغيرة وكبيرة تحدث في الفندق . . إذن

صاحبا العاشقان للصوت الأمر صليعه .
ويدها يدهما من بهمسات العشق ونجوى الغرام .
يبد أن نصب السفر وذلك الأثر الذي تركه
عبث الضباط في نفسيهما ، لم ينجبا عنهما
إلا بعد فترة طالت على عاشقين . وإن اثنين
في مثل سنهما الشابة الزاخرة ، لا يجدان
كثير مشقة في التخلص من متاعب تتحالف
على هارين في الهوى ، وسرعان ما أوغل
كل منهما في الاستمتاع بوقته واغتنام
لذة ساعته

وحيل إليهما أن ما يخشيانه من الضباط
قد انجبا وانجلى . ولكن ما كان هذا
مع الأسف إلا هدية قصيرة إذ حدث في تلك
اللاحظة المرموقة ، تلك اللحظة التي كانا
يخلقان فيها في آفاق من السعادة المطلقة
أن تفجر صوت أربعة وعشرين بوقا
مصحوبة بأصوات أخرى من آلات
نحاسية في شيد مشهور بين الفرنسيين
هو «النصر لنا» وكيف يطبق أى مخلوق
مهما أولى من قوة الاحتمال ، مثل هذه
الحملة الهادرة

وانقلب العاشقان المسكينان إلى حالة
دعو إلى الرثاء ،

ولكن . . كان ما أعقب ذلك أدهى
وأمر . . إذ خرج الضباط في النهاية من
عربة المائدة وتماطروا مرورهم بخطواتهم

حسبي أن أقول إن الشمعة الموقدة والمثبتة على رف الموقد في الغرفة الزرقاء ، كانت قد أوشكت على نهايتها حين انفجر من مخدع الرجل الإنجليزي الذي كان يشتمله الصمت حتى الآن ، صوت جلبة شديدة ثم صرخة مكتومة وبضع كلمات مبهمه كأنها سباب ولستائم

واستولى الفزع على الشابين في الغرفة الزرقاء ، ولعل صوت السقوط كان قد أيقظهما من النوم ؛ إذ أن هذه الجلبة المجهولة قد كست وجهيهما بالحنق والسيخط على حظهما التمس . وتكلف ليون ابتسامة تخلفها قوله : — إنه صاحبنا الإنجليزي يحلم وما كان قوله هذا إلا لإبعاد الخوف عن رفيقته ؛ ولكنه هو نفسه كان يرتعد في شكل ظاهر . ومرت دقيقتان أو ثلاث ، سعا بعدها بابا في الزدهة يفتح في حذر — على ما يبدو — ثم يعلق في هدوء وكأنما كان امرؤ يسير في الزدهة خفيف الوطاء مضطرب الخطى ، كأنه في أغلب الظن يحرص أن يمر دون أن يسمع وقع خطواته — وصاح ليون في سيخط وتبرم قائلا : — أى مكان هذا المكان الملعون ؟

فقلت : — بل إنه الفردوس

ثم ألفت برأسها على صدر ليون ونثاءبت

قائلة : ما ألد النوم !

وتهدئت ثم رقدت وسرعان ما غلبها النوم ثانية . بيد أن ليون كان متوتر الأعصاب . وبدأ خياله يصور له أشياء لم يكن ليبدأ بها في ظرف غير هذا . ارتسم على صفحة ذهنه المرحق ابن أخى الرجل الإنجليزي المنحوس . لم تكن قد أعجبت نظراته إلى عمه في أثناء توسلانه حين كانوا يتجادلان في المحطة . كان يسأله تقودا ولا ريب . وليس من العسير على شاب ملأ اليأس صدره أن يتسلق من الحديقة إلى نافذة الغرفة الملاصقة ، ثم هو ما زال في الفندق فقد رآه في الحديقة منذ قليل .. من يدري .. ربما ... أجل ربما ... بل من المؤكد أنه كان يعلم بحزمة الأوراق المالية في حقيبة عمه . ثم هذه الضربة الشديدة التي تشبه سقوط هراوة ثقيلة على رأس أصلع ، وهذه الصرخة المكتومة ، وهذا الأنين الأليم ، ثم هذه الخطى الراحقة الحذرة ، إن لابن الأخ هذا لنفس محرم قاتل .. ولكن كيف ؟ إن فندقا غامضا بالضباط ليس بالمكان اللائق لارتكاب جريمة ... ثم إن الرجل الإنجليزي ، وهو متشكك مرتاب ، لا بد أنه قد أعلق بابه جيدا ، ولا سيما وهو يعلم أى نوع من الرجال يحوم حوله .. إنه لا يثق به ، وآية ذلك أنه لم يشأ الذهاب إليه ويبدد الحقيقة . حين دعاه ،

لا يتحرك ، يحدق النظر في فزع إلى الشيء
الرهيب ، كانت الشابة مستسلمة ليوم هادئ
وأنفاسها الدافئة المنتظمة تلفح عنق
الرجل الملعوع

وكان ليون شاباً مثزناً التفكير ، يدل على
ذلك أنه أمر أول ما نزل بالفندق بإعداد
طعام العشاء .. لذلك وضع لكل أمر
احتماله ؛ ولم يفقد حضور بديته ورباطة
جأشه في هذا الموقف .. لم يأت بأية حركة
تدل على انفعاله ، بل صعدت جميع الدماء
إلى رأسه لاستنباط حيلة تخلصه من ذلك
الموقف الصعب الذي يحيط به

وامل القراء الأعزاء وخاصة السيدات
منهم ينكرون على ليون هلمعه وانهايارأعصابه ،
وامله يقال إنه كان حتماً عليه أن يسرع إلى
غرفة الرجل الإنجليزي ليعتقل قاتله ، أو على
الأقل كان عليه أن يقرع جرس غرفته ويثيرها
ضجة في الحانة كلها .. ولكن ليون ..
معاذيره ؛ إذ يجب أن يدرك القراء أن حبل
الجرس في الفنادق الفرنسية ، إن هو إلا
بعض زينة غرف النوم والمخادع ، وغالب
ما يفترق إلى آلة معدنية تقوم بالغرض المنشور ..
كما يجب أن أضيف بكل تحفظ ولكن
بإصرار على رأيي ، أنه ليس من السهل على
عاشق يستقر على كتفه رأس حبيبته النائمة
أن يزججها بأمر جرعة حدثت في الغرفة

ولكن يا لله ! لماذا ينقب الإنسان عن أوهام
تنفص عليه وقته المنيء إيان سعادته ؟

هذا ما دار بخاطر ليون ... ومن بين
أفكاره هذه التي لا أحب أن أجمل القارىء
يمل من الإطالة في وصفها ، والتي مضت
تتناوب في خياله كمرأى الأحلام ؛ التي بصره
يتجه دون قصد منه إلى الباب الفاصل
بين الغرفة الزرقاء وبين غرفة الإنجليزي

ويخلق بنا أن تشير إلى أن الأبواب في
فرنسا لا تكون محكمة وإن أغلقت .
كان بين هذا الباب وبين أرض الغرفة
فتحة ارتفاعها نصف بوصة . وعلى حين
بجأة ومن خلال هذه الفتحة تبدى له شيء
قاتم اللون يبرق من طرفه ما يشبه سلاح
مطواة انعكس ضوء الشمس على نصلها .
ومضى هذا الخط القاتم من طرف ، اللامع
من طرفه الآخر ، يزحف في بطن نجاه خفين
من السنان الأزرق القيا في إهمال على مقربة
من الباب .. ما هذا .. أترأه حشرة زاحفة ؟
كلا .. ما هو بحشرة ، فماله هيئتها ..
الآن أقبل خيطان .. بل ثلاثة بنفس الجانب
اللامع البراق تزحف إلى الغرفة الزرقاء ..
وكانت حركتها سريعة بفضل انحدار أرض
الغرفة .. الآن قد برح الخفاء .. إنه سائل ،
وإن لونه ليبدو الآن واضحاً في ضوء
الشمعة .. إنه دم .. وبيننا كان ليون جامداً

واحدة ... إنها غلطتك ، وإنها النتيجة غلطتك »

ومن بين كلمات مثل هذا السؤال الذى ظل يدور فى ذهنه قوله « ماذا أصنع فى هذه المشكاة ؟ » غالبا ما يلوح الإنسان بصيصا من الأمل ... وقال ليون لنفسه يلتمس مخرجا : « ماذا لو أسرعنا بمنادرة هذا الفندق اللعين قبل أن يكتشفوا ما حدث فى الغرفة المجاورة .. وسوف تضيع آثارنا . فما من أحد يعرفنا هنا .. ما رأوى إلا والنظارة الزرقاء على عيني ، وما رأوها إلا والقناع على وجهها . ولا يفصلنا عن المحطة سوى خطوات قلائل . وفى ساعة تكون بعيدين عن هذه المدينة المشتومة . » ... وبينما كان يدبر أمر فراره إذ وقع بصره على الساعة فذكر أن ثمة قطارا يمر بالمدينة فى الثامنة يقصد باريس حيث يستطيع هو ورفيقته فى زحمة تلك المدينة العظيمة أن يحتفيا إلى الأبد . فطلما أخفت باريس المجرمين والأشقياء . من يستطيع فيها أن يعثر على شخصين برئيين ؟ ولكن ماذا تكون الحال لو دخل امرؤ غرفة الإنجليزى قبل الساعة الثامنة ؟ هذه هى المشكاة .. ولكن هل يستطيع غير هذا ؟ وبذل جهدا كبيرا للتخلص مما ران عليه من روع وفزع . واستيقظت رفيقته لأول حركة بدرت منه ، فقبلته ، بيد أنها صاحت عندما

المجاورة قتل فيها إنجليزى .. فما يستحق مقتل أجنبي كل هذا العناء .. هذا إلى أنه ماذا كان يحدث لو أن ليون صاح بمل صوته وأيقظ الفندق كله . سيأتى رجال البوليس والمحققون ، وبدلا من أن يسألوه ما رأى وما سمع ، سيراهم بدافع الفضول يستجوبونه هكذا : « ما اسمك ؟ وأين أوراق شخصيتك ، والسيدة .. ما اسمها وما علاقتها بك . ولماذا تتيان معا فى هذه الغرفة الزرقاء .. عليكما أن تثبتا المحكمة أنكما ساعة الجريمة كنتما فى مكان كيت وكيت ... الخ »

كان هذا أول ما خطر ببال ليون .. وكم فى الحياة من مشكلات ! .. والآن ! ترى أيهما أفضل ، أن تترك أجنبيا يقتل ، أم أن نجلب العار والفضيحة على امرأة حبيلة ؟ لا ريب أن ليون تصرف كأى رجل آخر يكون فى موقفه

لميث فى مكانه كالصنم . وبدأ كأنه مخبول المعقل وهو ينو إلى الخفين الأزرقين ، والمجرى الأهر الصغير الذى مسهما .. واتصبب العرق البارد من جبينه ، واشتدت ضربات قلبه كأنما ستمرق صدره . وانتابه إحساس بالخوف شديد ، وتلاحقت فى ذهنه أخيلة أفرعته ، وهب من أعماقه صوت راح يهمس فى كل كيانه : « سينكشف الأمر فى ساعة

مست خذه البارد وهتفت في لهفة :
 — ماذا جرى ؟ إن جبينك بارد كالرخام
 فقال في صوت يرتجف :
 — لا شيء ، إلا أني سمعت جلبة في
 الغرفة المجاورة

وغادر فراشه ابتغاء إخفاء أي أثر يجعلها
 تعلم . أخفى نعلها الأزرقين ، ووضع مقعدا
 كبيرا يحق به خط السائل الأحمر الذي
 تجمع الآن وأنشأ ما يشبه بركة صغيرة على
 بلاط الزرقة ، ثم فتح الباب وأنصت في
 الصالة ، ولمس في نفسه جرأة جعلته يختبر
 باب غرفة الإنجليزي .. ألفاه مغلقا .. كان
 الهدوء يطوى الفندق كله . وكان نور القمر
 ينبثق ، وبدأ بعض الخدم يجهزون
 الجياد في الإسطبل ، وفي الطابق الثاني كان
 نمة ضابط يهبط الدرك وخلفه جلبة من
 مهماريه

عاد ليون إلى الغرفة الزرقاء وقص على
 رفيقته الأمر كله في أسلوب ملتو مخفف
 كان من الخطر البقاء ، وكان من الخطر
 الإسراع في الرحيل .. بل كان الخطر كل
 الخطر في البقاء في الحانة حتى يكتشفوا
 ما حدث في الغرفة المجاورة . ومن الميث
 أن يفصل وصف الخوف الذي نشأ في صدر
 الشابة العاشقة من سرد الخبر . هاتيك
 الدموع الغزار التي أهمرت ، وتلكم الآراء
 التي قلت . وكم من مرة ألقى كل من

وكم كانا يرتجفان ويستولى الرعب عليهما
 حين يطرق أذانهما وقع أقدام في الردهة .
 كل ضربة حذاء تسرع إلى خيالهما بنهاويل
 رجال البوليس وتساویرهم ، وحزما أمتعتيهما
 في أقل من رد الطرف ، وأرادت الشابة أن
 تحرق الخفين الأزرقين في المدفأة ، ولكن
 ليون أخذها ومسحها في طرف ملاة
 السرير ، قبلهما ، وغيبهما في جيبه ، ولقد
 دهش حين شم فيهما رائحة « الفانيليا »
 رائحة كانت تحبها رفيقته كما كانت تحبها
 الإمبراطورة أوجيني ..

الآن استيقظ كل نزل الفندق ، وتناثرت
 إلى أسناع ليون ورفيقة ، ضحكات الخدم

وترانيم الوصيفات ، وأناشيد الجند وهم
ينظفون أبواب ضباطهم ... ودقت الساعة
سبع دقائق ، وأراد ليون أن يجعل حبيبته
تتناول قهحا من القهوة ، ولكنها أشارت
إلى حنجرتها كأنها تلهب فلا تسمع شيئا ما
وضع ليون نظارته الزرقاء على عينيه ،
ثم هبط يدفع حسابه ، وأبدى له صاحب
الفندق معاذيره عما حدث من جلبة
وضوضاء ، فلم يفهم ليون ما يعنيه الرجل ،
فإن كان يقصد جلبة الضباط وتصرفهم ،
فقد كان ذلك نعمة كبرى قياسا إلى ما حدث
في غرفة الرجل الإنجليزي ... ومضى ليون
بؤكد له أنه قضى ليلة هادئة هائلة

وتابع صاحب الفندق يقول :

— أما عن جارك الإنجليزي فلا يستطيع
الآن مضايقتك ، فهو الآن يقينا نائم كالقتيل
هنا اعتمد ليون على مكتب الرجل اتقا
السقوط ، ورفيقته التي أصرت على مصاحبته
سدت هي الأخرى على ذراع ليون وأثبتت
القناع على وجهها

واستأنف صاحب النزل حديثه في خشونة :
— إنه نيل إنجليزي ، ولا يرضى بغير
الأجود في كل مطالبه ، وهو مهذب لاريب
في ذلك ، ولكن ليس كل الإنجليز مهذبين ،
فبالفندق إنجليزي آخر كأنه مجرم سفاح ،
كل شيء في ناظرية مرتفع الثمن : أجر

الغرفة ، وثمان العشاء ... وقد أرغمني بلسانه
السلطان وعينه المتوهجتين أن أستبدل له
مائة وخمسين قرنكا بورقة مالية من فئة
الخمسة جنيهات الإنجليزية ... انظر ياسيدي !
ها هي ذى الورقة أرجو ألا تكون زائفة
ونظر ليون إلى الورقة في يد الرجل
فرأى في أحد أركانها بقعة حمراء فهم ليون
منها كل شيء وعاد الرجل يقول :

— أظنها صحيحة ، أوه ! مازال الوقت
ملسعا ... فما يصل القطار إلا في الزامنة . بل
كثيرا ما يتأخر عن موعدة . آه ! عفوا
ياسيدي .. ألا تجلسين ! يبدو أنك متمعة

هنا دلفت خادم عفراء مكتنزة . قالت :
— أسرع بناء ساخن لشاي اللورد ،
ثم باسفنجة أيضا فقد انكسرت راحة
الحجر ونحرت غرفته جميعا

وترك ليون نفسه يسقط بين دراعى
متمد كبير ، كذلك فعلت صاحبتة ، بنفسها ،
وأحسا كلاهما برغبة شديدة في الضحك ،
وتغير رأيهما ، فلن يبرحا بمثل هذه السرعة
وأمسكت الشابة بذراع ليون وهزته في
إتساح شديد . وقال ليون لصاحب الخان :
يقينا لن نرح قبل المساء . وعلى
ذلك فجهز لنا غداء فآخرا في تمام الساعة
الثانية عشرة

محمد عبد الفتاح